مَعْنَى اسْم اللّه «البَارئ» في ضوء بعض اللغات السامية

أ. رضا زيدان
مؤلف ومترجم
Redazedan1946@gmail.com

مقدمة:

لا شك أن العلم بالله وأسمائه هو أصل كل علم، وأن العلم به يورث الخشية منه، وقد أمرنا الله بأن ندعوه بأسمائه الحسنى، قال تعالى في كتابه: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ (الأعراف ١٨٠)، إذ أن التوحيد لا يتحقق إلا بمعرفة هذه الأسماء وتأدية حقها، وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم ربَّنا بأسمائه، وأدى حقها حق الأداء، وقال في الحديث المتفق عليه: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة».

وقد كتب أهل العلم وشرحوا أسماء الله، وعددوا فوائد الإيمان بكل اسم، فجزاهم الله خيرًا.

أتحدث في هذا المقال عن معنى اسم الله «البارئ»، وأُرجّح معنى من المعاني، أو أربط بين بعض المعاني التي ذكرها أهل العلم لهذا الاسم، وذلك استنادًا إلى اللغة العبرية والأكادية.

1- «البارئ» في القرآن الكريم، والمعاني التي ذكرها العلماء

لقد ورد اسم الله «البارئ» في القرآن الكريم ثلاث مرات فقط، فقد ورد في سورة البقرة مرتين في آية واحدة، قال تعالى: ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم﴾ (البقرة ٥٤)، وورد في سورة الحشر، قال تعالى: ﴿هو الله الخالق البارئ المصور﴾ (الحشر ٢٤). وقد اختلف أهل العلم في تحديد معنى الاسم، وسأذكر المعاني الأربعة الأشهر مُمثلًا لكل معنى بإمام أو إمامين فقط:

(١) البرء هو الخلق، يقول الطبري: «يقال: قد برأ الله هذا الشيء، بمعنى: خلقه فهو بارئه»، وعلى هذا الرأي فإن هناك ترادفًا بين اسم الله البارئ واسم الله الخالق. ويقول الفراء: «هي من برأ الله الخلق أي خلقهم. والبرية: الخلق، وأصلها الهمز، وقد تركت العرب همزها».

(٢) البرء أخصُّ من الخلق، وأصله من الفصل والتخلص، يقول الزجاج: «والبرء خلقٌ على صفة، فكل مبروء مخلوق وليس كل مخلوق مبروءً؛ وذلك لأن البرء من تبرئة الشيء من الشيء من قولهم: برأت من المرض، وبرئت من الدين أبرأ منه. فبعض الخلق إذا فُصل من بعض سُمي فاعلُه بارئًا».

(٣) البرء هو الخلق لا عن مثال، لكن يختص «البارئ» بخلق الحيوان أكثر، قال ابن الأثير: «هو الذي خلق الخلق لا عن مثال. ولهذه اللفظة من الاختصاص بخلق الحيوان ما ليس لها بغيره من المخلوقات، وقلما تستعمل في غير الحيوان، فيقال برأ الله النسمة، وخلق السموات والأرض».

(٤) البرء غير الخلق، فالخلق «التقدير، والبراء: هو الفري، وهو التنفيذ وإبراز ما قدّره وقرره إلى الوجود، وليس كل مَن قدّر شيئا ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله، عز وجل. قال الشاعر يمدح آخر:

ولأنت تفري ما خلقت ... وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

أي: أنت تنفذ ما خلقت، أي: قدرت، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد. فالخلق: التقدير. والفري: التنفيذ. ومنه يقال: قدّر الجلاد ثم فرى، أي: قطع على ما قدّره بحسب ما يريده». وهذا هو رأي ابن كثير بلفظه.

ولا تخرج المعاجم العربية عن هذه الأقوال، لذلك حاولت البحث عن قرائن أخرى من أجل تدقيق أفضل، فسأنظر أولًا في مادة «برأ» في بعض اللغات السامية ثم أحاول تحليل مناسبة كلمة «بارئكم» بالذات في آية البقرة للسياق.

2- معنى «برأ» في اللغة العربية الجنوبية القديمة والأكادية والعبرية

- ورد الفعل «برأ» في اللغة العربية الجنوبية القديمة، ففي معجم بييلا Joan Biella أن المعنى الأصلي لهذا الجذر هو البناء والنقش engraving، وخصوصًا على الحجارة، ويذكر بييلا أيضًا «برأ» بمعنى «خلق»، لكنه يُرجح أن هذا الاستخدام في اللغة الجنوبية القديمة مستعار من الفعل العبري «برا»، وبعض المعاجم تقول إنه مستعار من الأكادية، وأيًّا ما كان وبعيدًا عن فكرة «الاستعارة»، سنرجع خطوة للوراء إلى العبرية ثم الأكادية.

- **في العبرية** تكرر برا «أو برأ **בָּרָא** كما سنكتبها» في العهد القديم ٤٩ مرة، وأشهر موضع هو أول عبارة في العهد القديم: «في البدء خلق בָּרָא [برأ] الله السماوات والأرض» (التكوين ١:١)، لكن قبل النظر في هذه العبارة أريد أن أذكر موضعًا آخر كتمهيد، وهو فقرة: «مصور **יוֹצֵר** النور وخالق **וּבוֹרֵא** الظلمة، صانع **עֹשֶׂה** السلام وخالق **וּבוֹרֵא** الشر. أنا الرب صانع كل هذه» (أشعيا ٤٥: ٧)، إذ نجد هنا استخدام الفعل برأ مع الظلمة والشر، واستخدام فعل يصور (أو form) والفعل يصنع (أو make)، وهي أفعال تدل على الجعل، مع النور والسلام، فالمعقول أن نفهم أن كاتب السفر يقصد القول أن الله خالق كل شيء، الخير والشر، ومع ذلك يحرص على تنزيه الله عن الشر ولو لفظيًا، فلماذا استخدم الفعل برأ **בָּרָא** ولم يستخدم أفعال الخلق والإنشاء؟ لماذا فرّق بين النور والسلام وبين الظلمة والشر؟ يبدو إذن على الأقل أن الفعل برأ العبري يختلف عن أفعال الخلق العبرية الشائعة في كافة العهد القديم. أضف إلى ذلك أنه لم يرد في العهد القديم اسم الفاعل «البارئ» للتعبير عن الخالق.

في ضوء هذا قد نعيد النظر في ترجمة أو تفسير برأ بـ خلق في الفقرة الافتتاحية: «في البدء برأ **בָּרָא** الله السماوات والأرض»، لكن ما هي الترجمة المقترحة؟ في ورقة ممتازة لباحثة العهد القديم الهولندية إلين فان وولد Ellen van Wolde عن الفعل برأ العبري برهنت وولد بتحليل نصي دقيق لفقرات الخلق في سفر التكوين أن معنى الفعل برأ العبري يدور حول الفصل separate، أي أن المعنى وفقًا لها هو «في البدء فصل الله بين السماوات والأرض»، وليس خلق (وبالطبع هذا لا ينفي الخلق)، والأهم من ذلك أنها قارنت بين هذه الفقرة الافتتاحية وفقرات الخلق في نصوص بلاد الرافدين القديمة، مثل ملحمة جلجامش، وكان الحديث في هذه النصوص عن الفصل بين السماوات والأرض بالفعل السومري المناظر لبرأ وهو باد bad، ومن ثم فالقراءة السياقية والنصية ترجح بشدة أن معنى برأ في العبرية هو الفصل. وهو ما يتأكد عند النظر في اللغة الأكادية.

- **نجد في الأكادية** الفعل بارسو **parāsu**، ومعناه يدور حول الفصل separate ، والتحديد، وإصدار قرار، وتخصيص حصةٍ ما، وفطم الرضيع، والانقطاع،

والانتقاء، ووضع حاجز. ونجد أيضًا الفعل بارو parû بمعاني متقاربة تدور حول البروز، والإنبات، والظهور، ويقابله في العربية «فرى»، يقال عن شيء أنه مفري أي مشقوق، والتفرّي التشقق، ويقال: تبجست الأرض بالعيون وتفرّت.

في ضوء ما سبق يتبين أن معنى الجذر السامي «ب ر أ» لا يرادف الخلق، هو يلتقي دلاليًا مع الخلق، ويصح تفسيره بالخلق بسبب هذا التلاقي، لكن لا يرادفه، وإنما يعني الفصل والخروج من داخل شيء (كما قال الزجاج) أو الفري (كما قال ابن كثير)، أو بكلمة واحدة: الإظهار. فالله هو المُظهر والمخلص للشيء أو للأنفس بالخصوص من العماء التام، إذ يبدو أن العربية تخصص الإظهار (البرء) لذي الروح، لأن البرية هي الظاهرة في الأرض، أي المخلوقات التي تظهر بحكم امتلاكها للوجه الإنساني أو الحيواني والحركة التي هي أخص خصائص الظهور. وقد ورد الفعل «نبرأ» مع الأنفس في قوله تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ (الحديد ٢٢). وورد في قسم الإمام علي رضي الله عنه: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة». وبهذا نفهم مدى التداخل والتكامل في قوله تعالى: ﴿هو الله الخالق البارئ المصور﴾، فالتصوير هو آخر درجات الظهور، أو أقصى درجات الإظهار.

بقي أمر أخير وهو فهم مناسبة اسم «البارئ» في الموضع الوحيد الذي خاطب فيه القرآن المخاطَب باللجوء إلى هذا الاسم «بارئكم».

3- مناسبة اسم «البارئ» في قوله تعالى: ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم﴾.

من اللافت للنظر استعمال القرآن الكريم لهذا الاسم النادر مرتين في موضع واحد، وبالفعل حاول المفسرون إدراك مناسبة هذا الاستعمال، وملخص ما وجدت هو أن الله يبين لهم بطريق الأولى أنه هو المستحق للعبادة وليس أي مخلوق، يقول الألوسي - متابعًا للفخر الرازي - «وفي ذكره [اسم البارئ] في هذا المقام، تقريع بما كان منهم من ترك عبادة العالِم الحكيم الذي برأهم بلطيف حكمته حتى عرّضوا أنفسهم لسخط الله تعالى، ونزول أمره بأن يفك ما ركّبه من خلقهم، وينثر ما نظم من صورهم وأشكالهم حين لم يشكروا النعمة في ذلك وغمطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها».

وما أقترحه لا يخالف هذا التفسير، لكنه يبين مناسبة معنى الإظهار بالتحديد للسياق. لقد ورد عن ابن عباس في تفسير الآية أن: «موسى أمر قومه عن أمر ربه عز وجل - أن يقتلوا أنفسهم، قال: فاحتبى الذين عكفوا على العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، وأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضا،

البارئ

فانجلت الظلمة عنهم وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة». ويقول الحسن البصري: «قوله: فاقتلوا أنفسكم. قال: أصابت بني إسرائيل ظلمةٌ حندس [الظلمة الشديدة] فقتل بعضهم بعضا ثم انكشف عنهم، فجعل توبتهم في ذلك». وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «لما رجع موسى إلى قومه، وكان سبعون رجلا قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه، فقال لهم موسى: انطلقوا إلى موعد ربكم. فقالوا: يا موسى، أما من توبة؟ قال: بلى! (اقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم) الآية. فاخترطوا السيوف والجرزة والخناجر والسكاكين. قال: وبعث عليهم ضبابة، قال: فجعلوا يتلامسون بالأيدي، ويقتل بعضهم بعضا. قال: ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله ولا يدري، ويتنادون فيها: رحم الله عبدا صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه...فقتلاهم شهداء، وتيب على أحيائهم».

لقد أدّى شرك بني إسرائيل بعبادة العجل إلى هذا الموقف المرعب، وهذه الظلمة التي ذكرها بعض السلف، فأمر الله نبيه موسى عليه السلام بأن يكفّروا عن هذا الذنب الأعظم، شهادة لمن سيُقتل وتوبة لمن قَتَل، ويمكن فهم المناسبة على النحو التالي. لمّا كان البارئ هو من برأ النسمة من الظلمة فإن البارئ هو من سيبرؤكم من هذه الظلمة التابعة لشرككم، فهو الذي يفصل بين الظلمات والنور ويخلّص من الشرك.